**المحاضرة السابعة: الفكر الخلدوني بين الرأسمال الرمزي والتراث العالمي**

لما كان عصر بان خلدون هو عصر الانحطاط فان مصير أفكاره كان التغافل، لأنها انتشرت في بيئة جامدة، مصيرها كمصير حبات القمح التي يبذرها الفلاح في الأرض القاحلة، هذه الأفكار لم ترى النور إلا في القرن التاسع عشر، بعد الطبعات المتتالية لكتاب "العبر" وترجمته إلى اللغات الأوروبية، فهذا الكتاب يعتبر أعظم مصدر تاريخي لحياة القبائل العربية والبربرية في القرون الوسطى، فهو موسوعة شاملة تحدث فيها عن العلوم التي اكتشفها، كعلم والتاريخ ومنهجية البحث فيه والأسباب التي توقع المؤرخون في أخطاء، وعلم الاجتماع أو العمران البشري وطريقة البحث في الظواهر الاجتماعية القائمة المشاهدة والتجربة، والسياسة، عندما يتحدث عن الدول وأنظمتها، والاقتصاد عندما يتحدث عن أحوال المعاش للبدو الحضر، ففي القسم الأول من المقدمة يتناول خلدون فضل علم التاريخ والأوهام والمغالط التي وقع فيها المؤرخون الذين سبقوه كالطبري والمسعودي وأسباب هذه المغالط، والقواعد الوقائية التي ينبغي على المؤرخ أن ينتهجها في البحث التاريخي، والقسم الثاني يحتوي على طبيعة العمران من بدو حضر، والكسب والمعاش، والعصبيات والتغلبات للبشر بعضهم على بعض، والصنائع والعلوم، و الأقاليم وتأثير الهواء و البيئة الجغرافية على ألوان البشر و طبائعه، والدول و عمرها، والملك، والتعليم وطرقه، والعلوم وأصنافها، وغيرها من الميادين كالرؤيا والنبوة، وغرضه ولم يكن تاريخيا فقط بل كان أعم من ذلك لأن التاريخ عند خبر عن الاجتماع الإنساني، بل كان يقول أنه إذا أحطنا بأحوال العمران وتعمقنا في دراسته وكشفنا عن القوانين التي تخضع لها الظواهر استطعنا تمييز الأخبار الصحيحة عن الأخبار الزائفة، وكل أبحاثه كانت قائمة على الحس والتجربة وتعليل الظواهر بأسبابها، فكلما تحدث عن ظاهرة اجتماعية إلا و بررها بالمشاهدات و الأمثلة الحسية، بمعنى انتهج الطريقة الاستقرائية التجريبية التي تنتقل من الملاحظة الحسية للظواهر إلى القوانين العامة، وهذا الطريقة التجريبية تدل على إيمانه بأن المجتمع الإنساني يسير وفق قوانين طبيعية.

بناء على ما سبق نرى أن طريقة ابن خلدون في البحث تختلف عما سبقه من الفلاسفة، فالفارابي يتبع في مدينته الفاضلة نفس الطريقة التي سار عليها أفلاطون، فيتصور مجتمعا مثاليا لا مجتمعا حقيقيا، و "ابن سينا" يعتقد انه في وسع الفيلسوف أن يصلح المجتمع ويحقق الخير والتقدم بما يشرعه من قوانين عادلة، أما ابن خلدون يبحث في ظواهر المجتمع كما هي عليه في الواقع، ولا وجود لأحكام إنشائية و لا مثل عليا التي يجب تحقيقها في التنظيم الاجتماعي، لذلك هو فيلسوف وضعي واقعي أو وجودي، يعتقد أن الحياة الاجتماعية والاقتصادية وإمكانات البشر العقلية، وحياة الدول و مؤسساتها خاضعة للتطور، وأن هذا التطور تتحكم فيه أسباب طبيعية، و كأن للمجتمع الإنساني نظاما طبيعيا يسير عليه، إذن المسائل التي تناولها ابن خلدون تتضمن الكثير من الأصالة، وانه تجاوز عصره، وسبق كثير من العلماء بوضع أسس علم جديد هو علم العمران البشري أو علم الاجتماع، وبوضع أسس علم التاريخ، والسياسة، والاقتصاد، و في مقدمته كثير من الأفكار التي نجدها فيما بعد عند الايطالي "فيكو" والفرنسي "مونتسكيو" و"مكيافيلي" و"أوجست كونت" والألماني"كارل ماركس" والفرنسي"إميل دوركايم" والانجليزي "داروين" وغيرهم من المفكرين. غير أن الفكر الخلدوني عند العلماء والمفكرين *المعاصرين* قد وظف بنزعتين: توظيف علمي، وتوظيف إيديولوجي.

**التوظيف العلمي للفكر الخلدوني (التراث العالمي):** لقد أدرك بعض المفكرين الغربيين القيمة العلمية لأفكار "ابن خلدون" بأنها سابقة لعصره، وبوؤوه، المنزلة اللائقة به، فهو مفكر مبدع، درس الظواهر الاجتماعية بعقل هادئ رصين، و أمن بمبدأ الحتمية الاجتماعية، وأسس علم التاريخ، موضوعا ومنهجا، وفسر الحوادث التاريخية تفسيرا فلسفيا معقولا، وكلامه على الكسب والمعاش والصنائع يضعه في مقدمة علماء الاقتصاد، وحاول أن يربط التطور الاجتماعي بأسباب طبيعية، وآراءه السياسية والاجتماعية قد أثرت في كثير من رجال السياسة، لقد سبق زمانه بابتكاره لكثير من النظريات التي لا تزال حتى الآن جديرة بالتقدير، وتأثيره تجاوز حدود عصره، فهو في مصاف العظماء الذين وجهوا العقل البشري توجيها جديدا، حيث لقب المستشرق النمساوي "هامر بورشتغال" ابن خلدون بمونتسكيو العرب وهو يقول"قلما وجد بين المؤلفات ما يستحق أن يترجم ترجمة كاملة مثل مقدمة ابن خلدون" و يقول "كولوزيو"" ليس لأحد أن ينكر أن ابن خلدون كشف عن مناطق مجهولة في عالم الاجتماع(,,,,) وانه سبق مكيافيلي ومونتسكيو وفيكو إلى وضع علم جديد هو النقد التاريخي" ويقول "ناتانيل سميث"" أن ابن خلدون كشف عن ميدان التاريخ الحقيقي وطبيعته، وهو فيلسوف مثل أوجست كونت وتوماس بكل، وهربارت سبنسر، وصل في علم الاجتماع إلى حدود لم، يصل إليها كونت نفسه في النصف الأول من القرن التاسع عشر" ويقول"قارد"" كانوا يقولون أن أول من قال بخضوع الحياة الاجتماعية لمبدأ الحتمية هو مونتسكيو أو فيكو، في حين أن "ابن خلدون" وهو من رجال القرن الرابع عشر، كان قد قال بذلك قبلهما بمدة طويلة" و يقول "توينبي" "لا شك أن مقدمة ابن خلدون أعظم عمل خلقه عقل في زمان ومكان" .

و ما يميز "ابن خلدون" هو الأصولية الدينية المعتدلة والحذاقة العلمية الخلاقة، أي كان مفكرا أصوليا معتدلا، وأثبت أن الإبداع المعرفي والعلمي ليس حكرا بأهل العلم المتحررين من سيطرة اللاهوت، بل هو مشاع لكل الفئات سواء كانوا أصوليون أو ملحدون أو جامعوا للعلم والإيمان، هذا ما أشار إليه الباحث الفرنسي المعاصر"كلود هورث" في كتابه الشهير"ابن خلدون: هل يمثل إسلام التنوير؟" حيث يقول" "ابن خلدون" يمكن أن يكون نموذجا يحتذى به بالنسبة للمثقفين اليوم، ويمكن أن يقدم لنا بديلا عن الفكر الأصولي المتطرف"**[[1]](#footnote-1)** وبالنسبة لأبحاث ابن خلدون الاقتصادية بعث الروائي الروسي"مكسيم غوركي" رسالة لرفيقه "أنوتشين" يقول فيها" أن المفكر العربي ابن خلدون تحديدا في القرن14 م يعد أول من اكتشف دور العوامل الاقتصادية و علاقات الإنتاج" و يطرح البروفيسور"كلود هرو" وهو أستاذ محاضر في العلوم السياسية في جامعة مونتسكيو، السؤال التالي و يجيب عنه بنفسه: هل يمكن أن نتعلم شيئا من ما قدمه ابن خلدون في القرن 14م؟ يجيب على ذلك "نعم بالنسبة لمفكر يكثف في أعماله فلسفة أرسطو والثقافة العربية الإسلامية، ومجمل التجربة السياسية التي عاشها في الأندلس و تونس والمغرب، وذلك بروح نقدية إبداعية، عبر ما قدمه من مفهوم جديد للتاريخ و من خلال التحليل الواقعي الذي طرح فيه نشوء وسقوط الحضارات"**(** حبيب محمد تقي، مقال"التراث الفكري الخلدوني بعيون مفكري الغرب"**)** وفي مؤتمر ابن خلدون الدولي الذي نظم بجامعة ابن خلدون التركية في ماي 2019م أشار رئيس الجامعة"رجب شان ترك" إلى أن العلماء العثمانيين ناقشوا أفكار ابن خلدون في وقتها، واعتبروا أرائه كالنظريات العلمية، ونحن نواجه يقول وضعا مماثلا اليوم، وهذا هو سبب وجودنا اليوم، ويقول"لا زال ابن خلدون مفيدا حتى اليوم، وما زلنا نستقي منه حلولا لمشكلاتنا التي تطرأ علينا من حين لأخر." وقد كان الهدف من المؤتمر هو استخدام منهج مؤسس علم الاجتماع ابن خلدون لفهم الواقع الحالي و دراسة الحضارة.

1. جميل صليبا، المرجع نفسه"تاريخ الفلسفة العربية" ص559،560. [↑](#footnote-ref-1)